أوما اليه ، وكان يرى كثيرا من الشعر فى الغزل والوصف والطبيعة بهذا المنظار ، وكان يرى أن تثقيف الشعور بالحرية هو تثقيف الشعور بالجمال ، وأن الدعوة إلى أدب جديد لا تستغنى عن الثورة على المقاييس الموروثة فى النقد والبلاغة ، لا يستطيع المرء أن يتشكك كثيرا فى أن العقاد رأى فى بعض هذه المقاييس ما يعوق صحة النفس والعقل فى أمة ناهضة ، كيف يكون الواجب شوقا وكيف تكون الضرورة حرية ؟ هذا سؤال مغزاه أن كثيرا من الأدب وكثيرا من المقاييس يجب أن يعاد النظر فيه . كيف يمكن الاطمئنان الى تحليل لغوى لا يستهدى بهذا الضوء ، التحليل اللغوى عند العقاد أداة فى خدمة هذه التصورات ، فإذا رأينا الباحث يتعمق لغة النص دون أن يكون على بينة من حاجة الحياة النامية فقد اخطأ السبيل ، وبعبارة مختصرة كان التحليل اللغوى بحيث لايستغنى عن النظر فى القيمة ، والقيمة هى أشواق النمو التى لاتعوقها الأغلال ، لمثل هذا كله كان العقاد يضيق ببعض الشروح ، وبعض البلاغة التى شرعت لأدب لايحترم نوازع الحياة الحرة البصيرة ، فالحرية علم وإحاطة ، ومجاهدة بعد مجاهدة . قد يكون فى كلام العقاد روح الشعر ، وقد تكون فلسفته ذات حظ من الخيال والوجدان .

(٤)

ولكن العقاد كان يرى أن التأملات اللغوية خاضعة للتقويم ، وأنها قد تفيد ، وقد تضر ، لقد ورث العقاد ماكان يسمى باسم مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، وكانت هذه المطابقة فى بعض الأحيان آية الخضوع أو الإملاء ، وآية الاعتراف المرهق بالضرورات ، والبحث عن التوافق الخاوى الذى يكبت نشاط النفس وحريتها ، وكان يرى فى بعض التراث القديم فى النقد والبلاغة موازين العربى وموازين الطبقة الخاصة ، وموازين التلاؤم والتوهم ، كان هذا كله تراثا يدرس ، ولكنه عاد لايصلح لمواجهة أدب جديد ، أو لا يصلح لخدمة مجتمع يجدد فهمه للعرف والطبقة الخاصة ويستعد للمخالفة . كان كل شىء فى النقد والبلاغة مقررا محسوبا من قبل أن ينطق الشاعر ، فكيف يسيغ العقاد هذا الإقرار المتحكم ؟ وكيف تستحيل البلاغة إلى فن من فنون التزيين الذى يختبىء دونه المرء ؟ تختبىء الحقيقة فى البلاغة المشغولة بتحسين القبيح مرة وتقبيح الحسن مرة اخرى ، هذه هى حياة الهزل التى أنكرها العقاد ، كان العقاد داعية نهضة ، وكانت النهضة شعورا بالجمال لأنها شعور بالحرية ، فأين التراث اللغوى الفاحص ـ على خطره ـ من هذا الشعور ؟ لمثل هذا كله كان التجديد الأدبى ـ